قراءة في القسمين الثالث والرابع
من كتاب "مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي عرض ونقد واقتراح"
للدكتور شكري فيصل

الدكتور كمال لفنوني
مختبر اللغة والنص
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، المغرب
المغرب

ملخص

تهدف هذه الورقة العلمية إلى قراءة في القسمين الثالث والرابع من كتاب " مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي عرض، ونقد، واقتراح " للدكتور شكري فيصل عبر طرح سؤال المنهج واستراتيجية التاريخ لحقل من حقول المعرفة الإنسانية؛ وهو حقل مناهج الدراسة الأدبية، وقد توزعت أفكار هذا الكتاب بين عرض أهم النظريات المركزية التي شكلت جغرافية التاريخ والدراسة الأدبيين وبين أشكال الممارسات المنهجية المختلفة التي رامت مدارسة الأدب العربي وتقاسمت إرثه النظري.

وتحقيقا لهذا الهدف بين شكري فيصل أهمية دراسة مناهج البحث في الأدب العربي ولخصها في غرضين اثنين، هما كالآتي:

- غرض قريب: التعرف على النظريات[1] والطرائق التي غلبت على الدراسات الأدبية واختبار قدرتها.
- غرض بعيد: استحداث منهج لدراسة الأدب العربي "يكون سبيلا لتحرير الدراسات الأدبية وتصحيحا للخطوات"[2]

إن الكتاب موضوع الدراسة يتأسس على خلفية معرفية تضع تاريخ الأدب العربي موضع تساؤل ونقاش وتهدف إلى رسم حدود معرفية لهذا الكائن الإشكالي من خلال الوقوف على ست أطروحات نظرية اهتمت كل واحدة منها بتاريخ الأدب من زاوية معينة. وقد هدفنا من هذه القراءة مقاربة بعض هذه النظريات خصوصا نظرية الفنون الأدبية ونظرية الجنس، وكذلك بيان الحدود التي رسمها شكري لكل منهما.

تقديم

كتاب" مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي عرض ونقد واقتراح " –في أصله –رسالة ماجستير تناول خلاله الدكتور شكري فيصل المناهج التي تعاورت الأدب العربي ورامت التأريخ له سواء القديمة منها أو الحديثة، والوقوف على أهم إضافاتها مستعرضا في الوقت نفسه حدودها وعيوبها النظرية والمنهجية. وذلك بهدف تجاوزها وتقديم بدائل عنها. فماهي الأسس النظرية والمنهجية لنظريتي الفنون الأدبية والجنس؟ وما حدود كل منهما وعيوبها؟ ثم كيف قارب شكري فيصل الممارستين المنهجيتين معا في علاقتهما بالأدب العربي عموما وتاريخه خصوصا؟ وما البدائل التي قدمها لدراسة هذا الأدب؟

القسم الثالث: نظرية الفنون الأدبية

الفصل الأول: عرض لنظرية الفنون: مؤيداتها وخصائصها

استهل شكري فيصل هذه النظرية بحديثه عن تجربة جورجي زيدان في دراسة الأدب العربي من جهة التاريخ له واعتبرها تحمل بذور تناول جديد لتاريخ الأدب العربي.

وحظيت نظرية الفنون عند شكري بوقفة خاصة وتأمل عميق كما هو شأن النظريات التي تقدم حديثه عنها في الأقسام الأولى من كتابه. ولم يكن اشتغال الأستاذ شكري فيصل بمجال النقد والدراسة الأدبيين وليد ترف فكري أو تطفل مجاني، بل كان يصدر عن إلمام واسع بالأدب العربي وإلمام أوسع بالنظريات النقدية واستيعاب لمناهجها التحليلية وتمثل لخلفياتها الفكرية الصريحة والضمنية. "وقد كشفت عن خصائص ...المنهج...وعن أصوله، وأبانت عما وراء هذه الأصول ...والغرض منها"[3] ويحيل هذا الأمر على إحدى أبرز السمات التي تميز بها شكري فيصل؛ فقد كان له اطلاع عميق بشتى الحقول المعرفية التي كانت تستوفد منها نظريات الأدب مادة اشتغالها ومصطلحاتها.

لقد انطلق شكري فيصل في شرح نظرية الفنون من هفوات النظرية المدرسية التي تقرن الأدب بالسياسة، وتهمش الأدب؛ فنظرية الفنون تعتمد على تصنيف نتاجات الأدب العربي إلى فنون وأنواع أدبية مع تجريده من العنصر الزمني الذي حكم الدراسات الأدبية " وألقى عليها ظله المديد".

نظرية الفنون إذن " تلتزم الصلة العميقة الشاملة بالنصوص."[4] وهي بذلك تتيح فرصة التعرف على الأدبيات العربية أكثر من مجرد الحديث حولها. فضلا عن ذلك، فهي تسمح باكتشاف ألوان جديدة، وألوان أخرى خافتة لم تكن لتصلها أضواء مؤرخي الأدب العربي الكاشفة، كالمقطعات مثلا، فهي تقف عندها بالدرس وقوفها عند مطولات الشعر بل تنصرف إلى تتبع الفن الأدبي من خلال تتبع مراحله فمثلا " دراسة الغزل وفق هذه الطريقة يكشف...عن لون جديد ظهر في الأندلس"[5] هذا الأخير يحمل ملامح الطبيعة الأندلسية لكنه أغنى الغزل العربي. إن هذه الطريقة تضمن –حسب شكري–التعرف على البيئة الأصلية للنوع الأدبي والبيئة الفرعية له: " ومثل هذه النماذج كفيلة أن تقودني إلى حكم صحيح عن تطور هذا الفن الأدبي بين الطبع والصنعة "[6]

❖ نقد نظرية الفنون

تتبنى نظرية الفنون المنهج الوصفي " فهي إذن وصفية تتناول الفن الأدبي بالرصد "[7]وتتوسل لأجل ذلك بطريقة " الاستقراء " التي ستدفع الدارس الأدبي " إلى أن يدرس تطور الفن الأدبي ونقلته عند كل الأدباء مغموريهم ومشهوريهم فيلمح كل الألوان التي صبغته والضلال التي تعاقبت عليه"[8]

❖ مفاهيم نظرية الفنون

لكل نظرية مفاهيمها الخاصة بها تحل إشكالاتها وتقترح البدائل النظرية. ونظرية الفنون تتبنى مفهوم الموازنة كمفهوم مركزي" إنني حين أقف عند قصيدتين في الفخر، إحداهما للمتنبي والثانية للمعري، أستطيع أن أدرك أي مدى يفصل بينهما في الأسلوب، أستطيع أن ألمح الضجة العنيفة هنا والهدوء العميق هناك، الفخر الصاخب، والفخر المتأني[9]. والموازنة إذن هي من الدعامات المفهومية لهذه النظرية، ويقترح شكري فيصل تمييزا بين أنواعها.

❖ **أنواع الموازنة**

- **الموازنة بين أديب وأديب:**" فأما الموازنة بين أديب وأديب فهي تعاقب شاعرين على رثاء رجل عظيم"[10]فهي تنتهي بنا إلى تخطيط شخصية كل منهما تخطيطا يسهم في إدراك مميزات كل منهما.
- **الموازنة بين أسلوب وأسلوب:** " وتضع يدنا على كل نقطة الالتقاء ونقطة التفارق بين الشاعر وأنداده "[11]

يبدو أن هذا التمييز الذي يقيمه شكري فيصل منهجيا ومنسجما، لكن، أليست الموازنة بين أديب وأديب – في العمق – هي موازنة بين أسلوب وأسلوب؟ وأن الموازنتين بذلك تكونان واحدة؟ أعتقد أن شكري فيصل حاد عن الدقة المنهجية والانسجام المنطقي، من جهة اعتبارنا الموازنتين موازنة واحدة، ومن جهة أخرى فالموازنة الأولى التي يقيمها بين الأديب والأديب هي ضرب من الاشتغال المنهجي لنظرية الفنون التي تركز بالأساس على الفن الأدبي وليس الشخص الأديب.

الفصل الثاني: نقد نظرية الفنون

من أبرز ما قد يكون من عيوب هذه الطريقة(التجزئة) التي تجنح إليها في دراسة الشاعر، ذلك " أنها تدرس نتاجه موزعا بين الفنون المختلفة " [12]

النظرة التجزيئية إذن، هي من أهم عيوب هذه النظرية ونذكر إلى جانب ذلك ما يأتي:

- ✓ إهمالها لصاحب النص
- ✓ الفصل بين العمل الأدبي وصاحبه
- ✓ واقع الفن الأدبي (القصيدة العربية)[13]
- ✓ الاكتفاء بدراسة الفن الأدبي في معزل عن شروط إنتاجه
- ✓ إغراق هذه النظرية في التحليل

القسم الرابع: نظرية الجنس

❖ **عرض لنظرية الجنس في الأدب العربي**

تقوم نظرية الجنس على علم الأجناس (الأنثروبولوجيا)[14] وتنطلق من سؤال منهجي يتمثل في مدى إمكانية دراسة التاريخ الأدبي على أساس من نظرية الجنس؟

إن هذه النظرية ترتكز على معطيات تاريخ الإعمار البشري والتوزيع السكاني لأن العالم في عرفها " لم يكن شعبا واحدا، ولكنما كان مجموعة من الشعوب المتنافرة وخليطا من الأقوام المتباينة".[15] وعليه فإن لكل شعب من الشعوب خصائصه المائزة وأسلوبه في التفكير والنظرة إلى الأشياء ولا شك أن هذا الاختلاف لم يكن ليذوب بين " طرفة عين وانتباهتها"

وبناء على هذه الفكرة فالأدب العربي لم يكن أدب العرب وحدهم بل أدب الأمم التي اجتذبتها الفكرة الإسلامية.

❖ **نقد لنظرية الجنس في الأدب العربي**

يقدم شكري فيصل في نقد هذه النظرية نمطين من النقد: أولهما وسمه بالنقد النظري وتمثل في الإيمان بأثر (الوراثة العرقية)[16] في التمييز بين الشعراء، الشيء الذي أفسد تاريخ الأدب العربي. وآخرهما وسمه بالنقد العلمي؛ فعمليا " ما من سبيل في إقامة

التاريخ الأدبي على نظرية الجنس من الوجهة الفكرية النظرية، وما من سبيل إلى ذلك أيضا من الوجهة التطبيقية العملية...فقد اختلطت الأجناس في الوطن الإسلامي اختلاطا هائلا... فكان من العبث أن تظفر بالدم الصافي والسلالة النقية "[17]

❖ **نقد لنظرية الجنس بصورة عامة**

يرى شكري فيصل أن هذه النظرية غير قادرة على استيعاب الأدب العربي بحمولاته التاريخية والدينية والثقافية سيما وأنها " لن تبلغ حد اليقين العلمي – وأن قصة الحضارات في سيرتها لا تتيح لنا الإيمان بالفروق والخصائص".[18] من ثم لم تكن هذه النظرية صالحة؛ لأن نقاط ضعفها توقعها في التناقض والتعقيد ولا تستقيم في التطبيقات العملية.

❖ **استدراك: بين الثقافات والأجناس**

لقد بات من المستحيل دراسة الأدب أو التأريخ له انطلاقا من هذه النظرية (نظرية الجنس)؛ لأن اللغة والعقيدة أذابتا كل فرق. وعليه كانت هذه النظرية تحمل – مع بدية ظهورها في الأدب – بذور موتها لأنها لم تقف على التشابكات ولم تدرك التمازج الذي صار معه ما تنظر إليه وما تعتقده أشتاتا كلا واحدا.

خاتمة

لقد شكلت قضية المناهج ودراستها هما معرفيا بالنسبة لجملة من النقاد والدارسين العرب من بينهم شكري فيصل الذي تناول في كتابه مختلف أشكال التفكير المنهجي والتقسيم النظري للأدب العربي، وإذا حاولنا استقراء الخطة التي درج عليها شكري فيصل في عرض نظريات دراسة الأدب العربي وجدناها قائمة على القطائع الابستيمية لا على الاتصالات ومد الجسور؛ ذلك أنه يشرح النظرية وأسس اشتغالها ويستعرض بناءها النظري ويعمد بعد ذلك إلى تقويض معالمها بهدمها لاعتبار من الاعتبارات كافتقار إحداها إلى التعليل والتحليل وأخرى إلى التركيب (نظرية الفنون) والنظرة التكاملية (نظرية الجنس).

لقد كان شكري فيصل يصدر في أحكامه عن جهاز نظري يستغرق الأدب العربي بالدراسة والتحليل مراعيا لطبيعته ومكوناته. وكان ذلك مشروعا فكريا حمله إلى اقتراح بديل عن النظريات السائدة في أعطاف كتابه هذا البديل الذي يتأسس على رسم استراتيجية جديدة لدراسة الظواهر الأدبية وتناول التاريخ الأدبي.

الهوامش:

[1] – وهي النظرية المدرسية – نظرية الفنون الأدبية – خصائص الجنس – الثقافات – المذاهب الفنية – الإقليمية.

[2] – شكري (فيصل): مقدمة الكتاب، دار العلم للملايين، ط 5، 1982، ص 1.

[3] – مناهج الدراسة الأدبية: شكري فيصل، ص 8.

[4] – مناهج الدراسة الأدبية، ص 77.

[5] – نفسه، ص 76.

[6] – نفسه، ص 76.

[7] – نفسه، ص 76.

[8] – نفسه، ص 78.

[9] – نفسه، ص 79.

[10] –نفسه، ص 79.

[11] – نفسه، ص 79.

[12] –مناهج الدراسة الأدبية، ص 83.

[13] – القصيدة العربية لم تكن تعرف وحدة الموضوع وإنما وحدة البيت.

[14] – نظرية الجنس تمتد في الادب في صورة كاملة لم يكن لها تطبيقات واسعة باستثناء ما قدمه الأستاذ إسماعيل مظهر في مجلة العصور 1928؛ حيث استند على علم الاجناس.

[15] – مناهج الدراسة الأدبية، ص 91.

[16] – مناهج الدراسة الأدبية، ص 92.

[17] – نفسه، ص 93

[18] – نفسه، ص 96.